الخطاب الروائي في الرواية المغربية المعاصرة: التجريب السردي، المكون العجائبي، والهوية الثقافية

عبد المجيد صدار

دكتوراه في النقد الأدبي
كلية اللغات والآداب والفنون،
جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، المغرب

ملخص:

يتناول هذا المقال تحولات الرواية العربية المعاصرة من خلال مقاربة تحليلية تسعى إلى تفكيك بنياتها السردية واستجلاء بعض انشغالاتها الدلالية والموضوعاتية. ويركز على آليات التجريب السردي بوصفها خيارًا جماليًا وبنيويًا يهدف إلى زعزعة أنماط الحكي التقليدية، عبر تفكيك منطق المرجع، وإعادة تشكيل الزمن والمكان، وإرباك الهوية السردية، فضلًا عن توظيف المفارقة واللعب السردي والميتاسرد، واستحضار العجائبي كأفق تخييلي موسّع لإمكانات السرد.

ويُبرز التحليل كيف تتحول الحكاية من بنية خطية مغلقة إلى بنية مفتوحة متعددة الأصوات والاحتمالات، حيث يغدو السرد فضاءً لتوليد الأسئلة والتوترات الدلالية بدل إنتاج معنى واحد أو حقيقة ثابتة، مع استمرار صلته المرجعية بالواقع دون قطيعة تامة. وفي مستوى موازٍ، يعالج المقال تمثلات الهوية الثقافية بوصفها موضوعًا سرديًا مستقلًا، يتجلى من خلال الصراع النفسي الداخلي للشخصيات وتوترها مع محيطها الاجتماعي والقيمي في سياق ثقافي متحوّل.

ويعتمد المقال المنهج التحليلي النقدي، مستفيدًا من أدوات السرديات الحديثة والدراسات الثقافية، للكشف عن تعدد مستويات اشتغال النص الروائي، وإبراز قدرة الرواية العربية المعاصرة على الجمع بين الابتكار الجمالي والانشغال بقضايا إنسانية وثقافية مركبة.

الكلمات المفتاحية: التجريب السردي - العجائبي - تفكيك المرجع - الصراع النفسي - الهوية الثقافية - الرواية العربية المعاصرة.

مقدمة:

عرفت الرواية العربية المعاصرة، خلال العقود الأخيرة، تحولات جذرية على مستوى البناء

السردي والرهانات الجمالية، حيث انتقلت من هيمنة الأشكال الواقعية والخطية إلى تبنّي أنماط سردية أكثر تعقيدًا وانفتاحًا. ولم يعد السرد الروائي يكتفي بمحاكاة الواقع أو تمثيله تمثيلًا مباشرًا، بل أصبح مجالًا لتجريب أشكال جديدة من الحكي، ولمساءلة العلاقة بين النص والمرجع، وبين اللغة والتجربة الإنسانية.

وقد تجلّى هذا التحول في بروز ما يُعرف بـ التجريب السردي، الذي اتخذ مظاهر متعددة، من بينها تفكيك الزمن الكرونولوجي، وتفتيت الفضاء الروائي، وزعزعة الهوية السردية، واعتماد تقنيات المفارقة واللعب وانقلاب الحكاية على ذاتها. كما أسهم الميتاسرد والتناص، ولا سيما التناص التراثي، في تعميق وعي النص بذاته، وتحويله إلى فضاء للتفكير في شروط الكتابة وحدودها ووظائفها.

وفي هذا الإطار، يحتل العجائبي موقعًا مميزًا داخل التجربة الروائية المعاصرة، إذ يسمح للسرد بتجاوز منطق الواقعية الصارمة، وبناء عوالم تخييلية تتداخل فيها الأسطورة والرمز والواقع. ويؤدي هذا الاشتغال العجائبي إلى تحويل الشخصيات والأمكنة والأحداث إلى كيانات دلالية مفتوحة، تسهم في تعقيد البنية السردية، وتكثيف مستويات التأويل، دون أن تفقد النص صلته بالواقع الاجتماعي والثقافي.

وبموازاة هذا الاشتغال البنيوي والجمالي، تواصل الرواية العربية انشغالها بقضايا موضوعاتية كبرى، من أبرزها مسألة الهوية الثقافية، التي تحضر في النصوص من خلال تمثيل الصراعات النفسية والاجتماعية التي تعيشها الشخصيات في سياقات موسومة بالتحول والاحتكاك القيمي. ويقتضي تناول هذه المسألة قدرًا عاليًا من الدقة المنهجية، بما يضمن عدم اختزالها في نتائج تقنية أو جمالية، أو ربطها بعلاقات سببية غير مبررة بالاشتغال السردي.

وانطلاقًا من هذا الوعي المنهجي، تسعى هذه الدراسة إلى تحليل آليات التجريب السردي والعجائبي من جهة، ورصد تمثلات الهوية الثقافية كما تتجلى في الصراع النفسي والاجتماعي للشخصيات من جهة أخرى، مع الحرص على قراءة كل مستوى في استقلاله النسبي، والكشف عن كيفية تجاورهما داخل النسيج الروائي. وتهدف الدراسة بذلك إلى الإسهام في تعميق فهم التحولات التي تعرفها الرواية العربية المعاصرة، بوصفها خطابًا فنيًا ومعرفيًا متعدد المستويات.

1- التجريب السردي وآليات تفكيك المرجع

1-1. التجريب السردي وتفكيك المرجع: زعزعة الزمن والمكان وبنيات الهوية

تنهض رواية «عين الفرس» منذ عتبتها الافتتاحية على مشروع تجريبي واضح المعالم، يتأسس على زعزعة المرجع الواقعي، وإرباك العلاقة التقليدية بين النص والعالم الخارجي. فالرواية لا

تسعى إلى تمثيل واقع مألوف أو إعادة إنتاج عالم يمكن التعرف عليه بسهولة، بل تعلن منذ البداية انخراطها في فضاء غرائبي ملتبس، يقوم على الانزياح المقصود وتعليق الإحالة المرجعية. وبهذا المعنى، لا يقدَّم النص بوصفه مرآة للواقع، بل باعتباره بنية سردية مستقلة، تُشيّد عالمها الخاص وفق منطق الاختلال والتشويش، لا وفق منطق المحاكاة والتماثل.

ويتجلى هذا التوجه التجريبي، في مستواه الأول، من خلال التعامل مع الزمن والمكان بوصفهما عنصرين تخييليين هشّين، منزوعي الاستقرار الدلالي. فالإحالة إلى سنة 2081، وربط الأحداث بمكان مبهم هو «إحدى الإمارات الكئيبة»، لا يُراد بها بناء أفق استشرافي بالمعنى المتعارف عليه، وإنما تُستخدم كآلية لتعليق المرجع، وإفراغ الزمن من قيمته التاريخية المعيارية. فالزمن هنا لا يُستثمر بوصفه إطارًا منظّمًا للأحداث، ولا باعتباره مسارًا خطيًا قابلاً للتعقّل، بل يتحول إلى علامة عائمة، تساهم في تقويض ثقة القارئ بكل ما يمكن أن يُعدّ واقعيًا أو قابلًا للتثبيت.

ويتعزّز هذا التفكيك المرجعي بصورة أكثر جذرية من خلال بناء السارد، الذي لا يُقدَّم بوصفه ذاتًا متماسكة أو وعيًا سرديًا ضابطًا، بل باعتباره كيانًا سرديًا متشظيًا، تتقاطع في بنيته الأزمنة وتتداخل فيها الهويات. فالسارد يصرّح بتعدّد ولاداته ووفياته عبر قرون متباعدة، في مقطع يكثّف الرؤية السردية للنص ويكشف رهانه التجريبي: «...ولدت سنة 661، ومتّ بعدها بعشر سنوات، ثم ولدت سنة 842، ومتّ بعدها بعشرين سنة، ثم ولدت سنة 1830 ومتّ بعدها بثلاثين سنة...».[1]

ولا يمكن فهم هذا التصريح خارج أفق تفكيك مفهوم الهوية السردية، إذ لا يعود السارد ذاتًا تاريخية محددة، ولا شخصية يمكن ردّها إلى زمن أو سياق بعينه، بل يغدو تجسيدًا لوعي سردي مثقوب، تتهاوى فيه فكرة الاستمرارية، وتنهار فيه الحدود الفاصلة بين الماضي والحاضر.

ومن خلال هذا التعدّد الزمني، يُقوَّض منطق السرد الخطي القائم على التعاقب السببي، ويُستبدل ببنية سردية تقوم على التكرار والتناسل. فالولادة والموت، وهما علامتان نهائيتان في المنطق الواقعي، تفقدان هنا طابعهما القطعي، وتتحولان إلى لحظات قابلة للإعادة والتداول، بما يحيل إلى تقويض فكرة النهاية، وإلى التشكيك في إمكانية الوصول إلى معنى نهائي أو حقيقة مكتملة. وبهذا، لا يعود السرد أداة لتثبيت الهوية أو ضمان الاستمرارية، بل يصبح فضاءً لتفجيرها وكشف هشاشتها.

ويكتمل هذا المنحى التفكيكي من خلال اعتراف السارد الصريح بضعف ذاكرته، واختلاط مصادره، وعجزه عن الفصل بين التواريخ والأحداث والأمكنة. غير أن هذا الاعتراف لا يُقدَّم بوصفه

1. الميلودي شغموم، عين الفرس، منشورات دار الأمان، الرباط، ط2، 2008، ص05.

خللًا عرضيًا أو نقصًا تقنيًا، بل يتحول إلى مبدأ بنائي يضطلع بدور مركزي في تشييد النص. فالسارد لا يدّعي السيطرة على مادته الحكائية، ولا يتظاهر بامتلاك الحقيقة، بل يكشف عن عجزه منذ البداية، مما يجعل الالتباس جزءًا مكوّنًا من نسيج الرواية، لا عارضًا طارئًا فيها. ومن ثم، تتحول «عين الفرس» إلى فضاء سردي مفتوح على الغموض، يُقصي الوضوح النهائي، ويدفع القارئ إلى الانخراط في عملية تأويلية شاقة ومستمرة.

ولا يقتصر تفكيك المرجع في هذا السياق على الزمن والهوية، بل يمتد ليشمل العلاقة بين الحكاية والحقيقة، وبين الذاكرة والتاريخ. فحين يُقدَّم التاريخ بوصفه سلسلة من الولادات والموتات المتكررة، وحين تُصوَّر الذاكرة بوصفها معطوبة ومختلطة، فإن الرواية لا تشكك في قدرة الفرد على التذكر فحسب، بل تضع موضع مساءلة كل السرديات التي تدّعي امتلاك الماضي أو احتكار معناه. وبهذا المعنى، يغدو التجريب في «عين الفرس» ممارسة فكرية بقدر ما هو خيار جمالي، إذ يُستخدم لكشف الطابع السردي، أي المصنوع والمُنشأ، لكل حقيقة يُراد لها أن تبدو نهائية أو مطلقة.

وعليه، يتبيّن أن التجريب في هذا المبحث لا ينحصر في اللعب الشكلي أو الغرائبية السطحية، بل يتأسس على رؤية نقدية للعالم، ترى في التاريخ بنية قابلة للتفكك، وفي الهوية كيانًا غير مستقر، وفي السرد أداة لزعزعة اليقين لا لترسيخه. ومن ثم، تضع رواية «عين الفرس» قارئها أمام نص يرفض الطمأنينة المعرفية، ويجعل من القراءة تجربة قلق وتأمل، تُعاد فيها مساءلة معنى الحكاية وحدود الحقيقة وإمكانات السرد ذاته.

1-2. المفارقة واللعب السردي: انقلاب الحكاية من وسيلة خلاص إلى أداة نقد

تُعد المفارقة، بكل أبعادها السردية والفلسفية، حجر الزاوية في التجريب الروائي الذي يقوم به شغموم في «عين الفرس». فالرواية لا تكتفي بتفكيك الزمن والهوية، بل تمتد لتقويض وظيفة الحكاية نفسها، وإعادة تعريف العلاقة بين السارد والقارئ، وبين النص والواقع، وبين الخيال والحقيقة. ولتحليل هذه البنية المعقدة، يمكن تفصيل المبحث في محاور أساسية تتناول المفارقة، اللعب السردي، والتفاعل بين الحكاية والواقع.

1-2-1. المفارقة كأساس للتجريب السردي

يستحضر شغموم منذ البداية بنية ألف ليلة وليلة التي كانت تعتمد على السرد كوسيلة للبقاء، ولكن المفارقة تكمن في قلب هذه البنية التقليدية: فالراوي هنا ليس شهرزاد القادرة على التحكم في

الحكاية، بل شيخ هرم، عاجز عن التذكر، متخبط في الخيال، كما يصف نفسه: «...شيخا ضعيف الذاكرة والعقل والخيال، هرما ميالا إلى الخلط...».[1]

إن هذا التقديم للراوي يكسر توقعات القارئ، ويضعه أمام وضعية سردية غير مستقرة. المفارقة هنا مزدوجة: الراوي مكلف بالحكي من أجل النجاة، والحكاية نفسها، المفترض أن تحميه، تحمل بذور الهلاك. هذا التنافر بين الدور المفترض للراوي وواقعه الفعلي يخلق شعورًا دائمًا بالريبة والقلق لدى القارئ، ويحوّل السرد إلى تجربة وجودية، حيث تصبح الحكاية تجربة للانكشاف عن هشاشة الإنسان أمام الأحداث والقدر.

المفارقة في الرواية لا تتوقف عند هذا الحد، بل تتجسد أيضًا في العلاقات بين الشخصيات والأحداث. فالراوي، بحكاياته، يعيد تشكيل الواقع، لكن هذه الأحداث تتسرب إلى الواقع وتفرض نفسها، فيظهر أن الحكاية ليست مجرد نقل للمتخيل، بل قوة إنتاجية تخلق واقعًا جديدًا، وتغيّر مصائر الشخصيات، بما فيها شخصية الراوي نفسه.

1-2-2. اللعب السردي: تشظي الزمن والواقع

يبرز اللعب السردي في الرواية في قدرة النص على قلب الحكاية على ذاتها. فمثلاً، حكاية «الولد الضال والرجل الطيب» تتحول من مجرد سرد متخيل إلى واقع ملموس، حيث تُفرض على الشخصيات وكأنها قدر محتوم. هذا الانقلاب يعكس تجربة فلسفية عميقة حول العلاقة بين الفعل والقدر، والخيال والواقع، ويؤكد على أن السرد ليس مجرد نقل للواقع، بل إعادة إنتاج له وفق منطق داخلي خاص، ينطوي على التناقض والتجاوز للمنطق التقليدي.

اللافت أن شغموم يستخدم عناصر الفكاهة والسخرية في هذا اللعب السردي، ما يجعل التوتر بين الواقع والمتخيل أكثر وضوحًا. حكاية السفينة الأمريكية المحمّلة بالبسطيلة والمشوي، التي بدأت كدعابة صغيرة، تتحول إلى أسطورة جماعية تغري سكان "عين الفرس" بالمغامرة، مما يكشف قدرة الحكاية على تشكيل تصورات الجماعة وتحريك أفعالها. وهنا يتضح البعد الاجتماعي للسرد: النص يبيّن كيف يمكن للخطاب الساخر أو الهزلي أن يتحول إلى قوة جماعية موجهة، سواء كانت مدمرة أو منقذة، ويكشف التفاعل بين الإيمان الجماعي بالحكاية والواقع المعيش.

1-2-3. الحكاية كأداة مزدوجة: النجاة والهلاك

يتعمق البعد المفارقي في أن الحكاية، التي يُفترض أن تكون وسيلة للنجاة، قد تتحول إلى سبب

1. الميلودي شغموم، عين الفرس، مصدر سابق، ص06.

للهلاك. عنوان إحدى حكايات الراوي «رأس الحية»[1] يرمز إلى هذا الخطر الكامن: الحكاية مثل الحية، قد تلدغ صاحبها، أي أن كل سرد يحمل في طياته احتمالية الانقلاب على السارد أو القارئ. هذا الطابع الثنائي للحكاية يطرح سؤالًا فلسفيًا أساسيًا: هل السرد أداة للسيطرة على الواقع أم انعكاس له؟ أم أنه نشاط إبداعي مستقل قادر على إنتاج الواقع؟

هذا التوجه يكشف أيضًا عن علاقة السارد بالذاكرة والتاريخ، فهو عاجز عن ضبط سرديته، وتتداخل الأحداث، وتتشظى الشخصيات والزمن، بما يعكس فكرة هشاشة كل محاولة للاستحواذ على المعنى أو التحكم بالماضي. فكل سردية، مهما حاولت فرض النظام، تبقى معرضة للانحراف والتفكك.

1-2-4. السرد كأداة نقد سياسي واجتماعي

المفارقة واللعب السردي يتجاوزان البعد الجمالي، ليصبحا نقدًا اجتماعيًا وسياسيًا. اعتقال السارد وتحميله مسؤولية اختفاء الناس يعكس منطق السلطة القمعية التي تبحث عن كبش فداء، فتخلط بين الواقع والمتخيل لتحقيق أهدافها، بما يبرز عبثية النظام وقسوة السلطة الرمزية.

بهذا الشكل، تتحول السخرية والفكاهة في الرواية إلى أدوات نقدية، تكشف استغلال السلطة للخطاب، واستجابة الأفراد له، مع إبراز هشاشة القدرة على التفريق بين الحقيقة والوهم. إن النص هنا يضع القارئ في موقع الرقيب والمفكّر معًا، ليعيد النظر في أسس الحكم على الأحداث، وفي حدود المعرفة، وفي طبيعة السرد كوسيلة للتمثيل والتغيير.

1-2-5. البعد النفسي والفلسفي للسرد التجريبي

يتجلى البعد النفسي في الشخصية الساردة التي تتسم بالتشظي والارتباك، ما يعكس صراع الفرد مع ذاته ومع الزمن ومع الهويات المتعددة. فالسارد المتعدد الأزمان والولادات والموت يعكس أزمة الوعي والذاكرة، ويطرح أسئلة فلسفية حول طبيعة الحقيقة والوجود: هل يمكن للإنسان أن يملك سرديته؟ هل يمكنه أن يفهم الأحداث ككل متكامل، أم أن كل محاولة للفهم محكوم عليها بالفشل؟

هذا التشظي والتحول المستمر للسرد يفرض على القارئ دورًا فعالًا، فهو لا يكتفي بالتلقي، بل يصبح شريكًا في إعادة ترتيب الأحداث، وفك الشفرات الرمزية، وفهم اللعبة السردية. وهكذا

1. الميلودي شغموم، عين الفرس، مصدر سابق، ص 07.

تتحول الرواية إلى تجربة فلسفية نقدية، حيث تتشابك الجمالية مع الفكر، والتجريب الفني مع البحث عن معنى، والواقع مع الخيال.

يتضح أن شغموم يمارس تجريبًا سرديًا متعدد المستويات:

- المفارقة تكسر الأطر التقليدية للسرد، وتضع الراوي والقارئ في مواجهة مستمرة مع الغموض والارتباك.
- اللعب السردي يقلب الحكاية على ذاتها، ويحوّلها من مجرد نقل للخيال إلى قوة إنتاجية للواقع.
- السرد يصبح أداة مزدوجة الوظيفة: وسيلة للبقاء وأداة للهلاك، ما يعكس هشاشة كل محاولة للسيطرة على المعنى.
- الرواية تمارس نقدًا اجتماعيًا وسياسيًا من خلال السخرية، وتجربة القوة الجماعية للأسطورة والخرافة.
- البعد النفسي والفلسفي يعمّق التجربة القرائية، ويحوّل النص إلى تجربة وجودية وفكرية متكاملة.

بذلك، تتحول الحكاية في «عين الفرس» من مجرد أداة للمتعة أو الخلاص إلى آلية تحليلية وإدانة للنظام، وللعلاقات الإنسانية، وللوعي الفردي والجماعي، ولقدرة السرد على إنتاج الواقع. الرواية بهذا المعنى تمثل قمة التجريب في الأدب المغربي المعاصر، حيث تلتقي الجمالية بالتجريب، والفكر بالفن، والسياسة بالوجود.

1-3. التجريب، التناص التراثي، والميتاسرد - الكتابة بوصفها سؤالًا مفتوحًا

يكتمل المشروع التجريبي في رواية «عين الفرس» لدى الميلودي شغموم من خلال الانفتاح الواسع على التراث السردي العربي، خصوصًا نص الخبر وبنية الليالي، ولكن هذا الانفتاح لا يتمّ بمنطق الاستعادة أو المحاكاة التقليدية، بل بمنطق التفكيك وإعادة التشكيل الذي يحوّل التراث من مرجع ثابت إلى فضاء للتجريب النقدي والفكري. فالخبر، الذي يعدّ شكلًا سرديًا شفويًا يقوم على السند وتعدد الرواة لضمان مصداقيته، يُستثمر في الرواية ليس لإعادة إنتاج الحقيقة التاريخية، بل للكشف عن هشاشتها وإظهار قابليتها للتحريف كلما انتقلت من راوٍ إلى آخر. وبهذا يصبح التراث أداة للعبة سردية، ومنصة لاستكشاف حدود المعرفة، لا مجرد مرجع للوقائع الماضية.

فانتقال الخبر من محمد بن شهرزاد إلى محمد النفال ثم إلى المهدي السلوكي يحاكي نظام الإسناد التراثي، لكنه في الوقت ذاته يكشف عن تناقضاته، ويبيّن كيف يمكن لنظام يُفترض أنه

يثبت المصداقية أن يصبح مصدرًا للالتباس وعدم اليقين. وهذا الوعي النقدي واضح في تصريح السارد نفسه: «...شيخا ضعيف الذاكرة... ميالا إلى الخلط...».[1]

يتضح هنا أن الرواية لا تنقل الحقائق، بل تُحوّل الخبر إلى أداة تشويش واستباق عبثي، حيث تتحول التواريخ والأحداث والأماكن إلى مادة مفتوحة لإعادة التشكيل. ومن هذا المنطلق، يتحول التاريخ في الرواية إلى سردية قابلة للتحوير، وليس إلى حقيقة مطلقة، وهو ما يعكس منظورًا نقديًا عميقًا للتاريخ والذاكرة، إذ يُظهر هشاشة كل سرد يدّعي الامتلاك الكامل للماضي.

بالإضافة إلى ذلك، تُستثمر بنية الليالي في الرواية بطريقة مبتكرة، تبدأ من أسماء الشخصيات وعلاقتها بالموت، مرورًا بتناسُل المحكيات داخل محكي الإطار، وصولًا إلى الطقوس الغرائبية التي يمارسها أهل «عين الفرس» لاستحضار الغائبين من البحر، والتصوير الرمزي لعودة الأزواج ليلاً، والحمل الغامض، وتسخير العفاريت. هذه العناصر لا تهدف إلى خلق عالم أسطوري بحت، بل تعكس انهيار العقل الجمعي تحت وطأة الخوف والفقر واليأس، وتكشف عن توظيف التراث كأداة لتأمل الواقع الاجتماعي والنفسي والسياسي، لا مجرد إعادة إنتاج الماضي.

ويتعمق التجريب أكثر من خلال الميتاسردية، إذ لا يكف النص عن التفكير في ذاته، والتساؤل عن معنى الحكاية وجدوى الكتابة، مما يضع الرواية على مستوى أعلى من الوعي النقدي. فالسارد يتساءل عن موقعه بوصفه مثقفًا عاجزًا عن تقديم المساعدة للناس البسطاء، ويعبر عن ذلك بقوله: «فالأمير لم يكن يهدف إلى عزلي في المكان والزمان، وإنما عزلي فكريا وشعوريا...».[2]

وهنا تتحول الرواية إلى فضاء للتأمل في مأزق المثقف، وفي حدود الكلمة أمام سلطة قمعية وواقع اجتماعي قاسٍ. كما أن النص لا يتوقف عند البعد الفردي للسارد، بل يطرح أسئلة حول العلاقة بين السلطة والمعرفة، ويكشف كيف تتحوّل الكلمة إلى أداة مقاومة، لكنها أيضًا ضعيفة أمام العنف الرمزي والمادي للسلطة.

من خلال هذا التحليل، يمكن القول إن التجريب في «عين الفرس» ليس مجرد كسر للشكل التقليدي أو نزوع نحو الغرابة، بل هو مشروع جمالي وفكري متكامل. التجريب هنا يقوم على ثلاث مستويات مترابطة:

- **تفكيك السرد التقليدي:** إذ يتحول الزمن والهوية والحكاية نفسها إلى مادة مفتوحة للعب والتجريب، ويتم مساءلة كل الأسس التي يقوم عليها السرد الواقعي.

1. الميلودي شغموم، عين الفرس، مصدر سابق، ص 06.
2. الميلودي شغموم، عين الفرس، مصدر سابق، ص 108.

• **التناص التراثي النقدي:** فالخبر وبنية الليالي يُعاد تشكيلهما بشكل يتيح التفكير في حدود المعرفة، وتفكيك الثوابت التاريخية والسردية، واستكشاف العلاقة بين الحقيقة والتخييل.

• **الميتاسرد والتأمل في الكتابة:** إذ تتساءل الرواية عن دور المثقف، وجدوى الحكاية، وحدود الكلمة أمام السلطة والواقع الاجتماعي، وتحوّل السرد إلى فضاء لسؤال مفتوح دائم حول المعنى والحقيقة والتاريخ.

ويضاف إلى ذلك بعد تجريبي آخر يتمثل في إشراك القارئ في إنتاج المعنى، إذ تُترك له مساحة تفسيرية واسعة، ما يجعل القراءة تجربة تأملية نشطة، وليس مجرد تقليد سلبي لنقل الأحداث. الرواية بهذا الشكل لا تقدم حلولًا جاهزة، بل تعكس الوعي النقدي للروائي الذي يكتب في مواجهة الواقع، وفي مواجهة التراث، وفي مواجهة السلطة، لتصبح الكتابة مشروعًا وجوديًا وفنيًا وفكريًا في آن واحد.

ختامًا، يمكن القول إن الميلودي شغموم، يوسع أفق الرواية المغربية المعاصرة، ويجعل من التجريب خيارًا جماليًا وفكريًا لا يخشى المغامرة، ولا يطمئن إلى اليقين، بل يقدّم الكتابة بوصفها سؤالًا مفتوحًا دائمًا عن التاريخ، والسلطة، والمجتمع، ودور المثقف، وإمكانية معرفة الحقيقة.

2- العجائبي كأفق سردي لتفكيك الواقع

2-1. تشكّل العجائبي عبر تفكيك الهوية وبناء شخصية «الأبله» ككائن أسطوري

تؤسس رواية «الأبله والمنسية وياسمين» عالَمها السردي على منطق عجائبي يتجاوز حدود الغرابة الشكلية ليغدو بنية فكرية وجمالية شاملة، يكون فيها العجائبي أداة مركزية لإعادة مساءلة مفاهيم الهوية، والمعرفة، والقيمة، والوجود الإنساني ذاته. ويتجسد هذا المنحى بوضوح في بناء شخصية «الأبله»، التي لا تُقدَّم باعتبارها فردًا مكتمل الملامح أو شخصية نفسية قابلة للتأطير ضمن نماذج التحليل الواقعي، بل بوصفها كيانًا سرديًا متشظيًا، يتقاطع فيه الأسطوري بالاجتماعي، والرمزي بالتاريخي، والواقعي بالمتخيل. فالسرد لا يمنح القارئ أرضية صلبة للاطمئنان، بل يدفعه منذ البداية إلى فضاء ملتبس، تتحلل فيه اليقينات، وتُعلَّق فيه الإحالات المرجعية، ويغدو السؤال عن «من هو الأبله؟» سؤالًا مفتوحًا بلا جواب نهائي.

ويُعدّ تفكيك الهوية الآلية المركزية التي يُبنى عبرها هذا العجائبي، إذ تُنزَع عن الشخصية كل سمات الثبات والاستقرار، ويُعاد تشكيلها وفق منطق التعدد والانتشار والتكرار. فالأبله لا يحمل اسمًا واحدًا، ولا ينتمي إلى مكان محدد، ولا يُحصر في زمن بعينه، بل يتوزع حضوره على فضاءات جغرافية متعددة، ويتخذ في كل سياق اسمًا مختلفًا، دون أن يفقد وحدته الدلالية. ويتجلى هذا

التفكيك بوضوح في المقطع المؤسس الذي يقول فيه السارد: «عندما سألتُ عنه علماء التاريخ والأنساب اختلفوا بخصوص اسمه ومكانه وزمانه، رغم أنهم لم يختلفوا إلا قليلا بشأن هويته. قالوا اسمه في الشرق قويدر الكبداني، واسمه في الشمال المختار الزيلاشي، واسمه عريف بنجلون المسدي في فاس ونواحيها، وفي البيضاء علي القبي، وفي أغادير والأطلس محماد آيتبيهي، وفي الجنوب اسمه زين الحالة ولد سيدهم. باختصار، قالوا في كل مكان آخر له اسم ورسم، وفي كل زمان له علامات وخصوصيات، وهو في كل الأمكنة والأزمنة واحد».[1]

إن هذا التعداد الاسمي والمكاني لا يعمل بوصفه تجميعًا معلوماتيًا، ولا يسعى إلى تثبيت هوية الشخصية، بل يقوم، على العكس من ذلك، بتقويض فكرة الهوية ذاتها. فاختلاف «علماء التاريخ والأنساب» لا يشي بتعدد الروايات فحسب، بل يكشف عن مأزق المعرفة الرسمية، وعن عجز الخطاب التوثيقي عن الإحاطة بكائن ينتمي إلى منطق آخر، يتجاوز التصنيف والتأريخ والتحديد. وبهذا المعنى، تتحول المعرفة نفسها إلى موضوع للسخرية الضمنية، إذ يبدو أن الاتفاق الوحيد الذي يجمع هؤلاء العلماء هو عدم قدرتهم على الاتفاق، وهو ما يجعل «الأبله» كائنًا يفلت من قبضة السلطة المعرفية، ويقيم في منطقة العجائبي التي لا تخضع لقوانين العلم ولا لمنطق التاريخ.

ومن خلال هذا التفكيك، يتحول «الأبله» إلى نموذج أسطوري عابر للأمكنة والأزمنة، يشبه في بنيته الكائنات الأسطورية التي تتكرر في الثقافات المختلفة بأسماء متعددة وصور متغايرة، لكنها تحيل دائمًا إلى جوهر رمزي واحد. فكونه في كل الأمكنة والأزمنة واحدًا، لا يعني ثباته، بل يعني تكراره، أي قابليته للتجسد المستمر داخل التاريخ الاجتماعي والثقافي. وبذلك، لا يعود الأبله شخصية فردية، بل يصبح صورة مكثفة لوعي جمعي، أو ظلًّا رمزيًا يرافق المجتمع عبر تحولاته، ويظهر كلما بلغت التناقضات ذروتها.

ويتعمق البعد العجائبي أكثر حين لا يقتصر التفكيك على الاسم والمكان، بل يمتد إلى الصفات الجوهرية التي تُلصق بالشخصية، حيث تُبنى هوية الأبله على اجتماع الأضداد داخل كيان واحد: «الجاهل/العارف، الميت/الحي، الحقير/العظيم، الطيب/الخبيث، الضعيف/القوي».

إن هذا الجمع بين الثنائيات المتناقضة لا يمكن فهمه بوصفه اضطرابًا في توصيف الشخصية، بل بوصفه استراتيجية سردية واعية تهدف إلى زعزعة منطق التصنيف القائم على الفصل الحاد بين القيم. فالأبله لا يقيم في أحد طرفي الثنائية، بل يسكن منطقة التوتر بينهما، حيث تتقاطع الدلالات وتتداخل المعاني. ومن هنا، يصبح العجائبي أداة لتفكيك المفاهيم الجاهزة عن العقل والجنون،

1. الميلودي شغموم، الأبله والمنسية وياسمين، منشورات الزمن، المغرب، 2015، ص 05.

وعن الخير والشر، وعن القيمة والدونية، إذ يُظهر النص أن هذه المفاهيم ليست مطلقة، بل نتاج أنساق ثقافية واجتماعية قابلة للمساءلة.

وتُفضي هذه البنية إلى قلب معايير الحكم الاجتماعي، حيث يتحول «الأبله» من موضوع للسخرية أو الإقصاء إلى مركز دلالي يكشف زيف القيم السائدة. فالشخصية التي تُوصم بالجهل قد تمتلك معرفة حدسية عميقة، والتي تُنعت بالحقارة قد تخفي في جوفها عظمة أخلاقية، بينما تبدو السلطة، في المقابل، غارقة في التفاهة والعنف. وهكذا، يصبح العجائبي وسيلة نقدية حادة، لا تهدف إلى الهروب من الواقع، بل إلى تعريته عبر تشويهه وإعادة تركيبه في صورة أسطورية.

ومن هذا المنظور، يغدو «الأبله» مرآة مشروخة تعكس صورة المجتمع، لا كما يريد أن يرى نفسه، بل كما هو في تناقضاته وقسوته ونفاقه. فالعجائبي هنا لا يقوم على الخارق، بل على المبالغة الرمزية التي تكشف المستور، وتجعل اللامعقول أكثر صدقًا من المعقول. وبذلك، يتحول التشويه إلى أداة كشف، ويغدو الأسطوري وسيلة لفهم الاجتماعي، لا نقيضًا له.

وعليه، فإن بناء شخصية «الأبله» بوصفها كائنًا عجائبيًا أسطوريًا لا يشكل خيارًا جماليًا فحسب، بل يعكس رؤية فكرية عميقة ترى أن الواقع ذاته بات غير قابل للفهم إلا عبر كسره، وأن الهوية الإنسانية لم تعد قابلة للإدراك إلا بوصفها بنية متشظية، متناقضة، ومفتوحة على التأويل. ومن خلال هذا الرهان، تضع الرواية القارئ أمام سؤال جوهري: هل «الأبله» هو الاستثناء، أم أنه القاعدة المقنَّعة؟ وهل الجنون صفة فردية، أم مرآة لعقل جماعي مأزوم؟

بهذا المعنى، يصبح العجائبي في «الأبله والمنسية وياسمين» أفقًا تأويليًا رحبًا، تتقاطع فيه الأسطورة بالنقد الاجتماعي، ويتحول فيه تفكيك الهوية إلى أداة لكشف اختلال العالم، لا للفرار منه. ولذلك، اتجه الروائي الميلودي شغموم إلى توظيف البُعد العجائبي في أعماله، بهدف معالجة مجموعة واسعة من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد اعتمد في ذلك على عناصر الفانتازيا والأجواء العجائبية، إلى جانب الرموز ذات الإيحاءات والدلالات المتعددة، كوسائل فنية وجمالية تمكّنه من تسليط الضوء على مظاهر السلبية والمشكلات التي تعاني منها العديد من البلدان العربية. هذا ما يؤكده الباحث عبد الفتاح الحجمري في قوله: «...ذلك أن النص الروائي يركز هنا مدار الحكاية على العجيب والغريب والأحلام والكوابيس ليس بهدف مخالفة المألوف واليومي المتداول، بل بغاية ترميز سلوكات ومواقف الشخصيات لمنح الاعتقاد بأن العلاقة القائمة بين الخيال أساسها النسبية: ليس هناك واقع ثابت وليس هناك خيال مطلق».[1]

1. عبد الفتاح، الحجمري، الحكاية والحياكة توصيفات نصية وحكائية في الرواية المغربية التسعينية، مقال ضمن كتاب جماعي

2-2. العجائبي الحكائي وتفكيك الحقيقة عبر تعدّد الأصوات الساردة

لا يشتغل العجائبي في رواية «الأبله والمنسية وياسمين» عند مستوى الحدث أو الشخصية فقط، وإنما يتجذر في البنية الحكائية نفسها، حيث تصبح آليات السرد مجالًا أساسيًا لتوليد الغرابة والالتباس. فالنص لا يقدم الحكاية باعتبارها مسارًا خطيًا ذا بداية ونهاية واضحتين، ولا يتيح للقارئ إمكانية الركون إلى راوٍ موثوق، بل يقوم على تفتيت سلطة القول، وتوزيعها بين أصوات متعددة، لكل منها منظور مختلف، ومصلحة ضمنية، وحدود معرفية صارخة. وبهذا المعنى، يتحول السرد إلى فضاء للصراع التأويلي، لا إلى أداة للكشف أو التوضيح.

إن تعدد الأصوات الساردة في الرواية لا يؤدي وظيفة تنويع شكلية، بل يُنتج أثرًا عجائبيًا قائمًا على زعزعة الثقة في الحكاية ذاتها. فالجدة، بما تمثله من ذاكرة شعبية، وحكي شفوي، ونزوع أسطوري، تطرح رواية مشبعة بالمخيال، لكنها لا تُمنح امتياز الصدق. وفي المقابل، لا يقدّم الجد نفسه بوصفه سلطة تصحيحية قادرة على إعادة الأمور إلى نصابها، بل يمارس دورًا تقويضيًا ينسف فكرة المرجع من أساسها. ويتجلى هذا الموقف بوضوح في قوله:

«لن أعلّق لا على كلام علمائك ولا على كلام جدتك، فالظاهر أن لا جدتك ولا علماؤك يعرفون شيئًا حقًا عن هذا الرجل، ولا هم يعرفون شيئا عن القرية وأهلها. أما كلام علمائك فهو مجرد حسن تخلص، وأما حكاية جدتك فهي مجرد وسيلة استعملت لكي تسرق منك الشوينغوم والأنس»[1]

إن هذا القول لا يشتغل بوصفه تصحيحًا معرفيًا، بل باعتباره إعلانًا صريحًا عن انهيار إمكانية المعرفة ذاتها. فالجد لا يستبدل رواية بأخرى، ولا يدّعي امتلاك الحقيقة، بل يضع كل الخطابات - الشعبية منها والعالِمة - موضع الشك، ويكشف أن الحكي، مهما تعددت مصادره، يظل ممارسة مشروطة، تحكمها الرغبة والمصلحة واللعب. وهنا، يتحول العجائبي من خاصية تخييلية إلى موقف معرفي جذري، يقوم على تعليق اليقين، وتقويض كل سرد يدّعي التطابق مع الواقع.

ومن هذا المنظور، يصبح العجائبي الحكائي نتاجًا مباشرًا لغياب الحقيقة الواحدة، لا لخرق قوانين الطبيعة. فالرواية لا تقدم عالَمًا خارقًا، بل عالمًا ملتبسًا، تُلغى فيه الحدود بين الصدق والكذب، وبين الواقع والمتخيل، وبين الجِدّ والهزل. ويغدو القارئ أمام وضع سردي لا يمكن فيه الحسم، ولا يُتاح فيه الاطمئنان إلى أي صوت، لأن كل صوت يُقوَّض من داخله، أو يُنسَف من خارجه؛ حيث يصبح السرد مقدّما من عدة زويا عبر سراده: «الجدة التي تروي لحفيدها قصة

بعنوان: الرواية العربية في نهاية القرن: رؤى ومسارات)، أعمال ندوة علمية أقيمت أيام 25-26-27 سبتمبر 2003، منشورات وزارة الثقافة (المغرب)، ص 127.

1. الميلودي شغموم، الأبله والمنسية وياسمين، مصدر سابق، ص 61.

(الأبله). وفي إطار حكيها العام تتداخل أصوات أخرى. تقوم بالسرد من خلالها في شكل ضمير غائب يقوم بالتفسير أو الإضاءة لبعض أحداث القصة التي ترويها. مما يعطي لحكيها طابع التحفظ، حيث يبرزه المروي له بجلاء في نهاية حكيها. وبذلك تكون رؤيتها السردية خارجية تبعا لذلك. الجد الذي يروي بدوره قصة «الأبله». من منطلق خاص ومغاير لما حكته الجدة. وهو مشارك في أحداث القصة كشخصية رئيسة (المتسول) حيث يعلق على كل الروايات الشائعة في القصة بما فيها قصة الجدة. وبذلك يأخذ سرده طابعا ذاتيا من خلال رؤيته الداخلية».[1]

ويعيد هذا البناء السردي إنتاج منطق الحكاية الشعبية والأسطورة الشفوية، حيث لا توجد نسخة أصلية أو رواية نهائية، بل تتعدد الصيغ، وتتحول الحكاية إلى كيان حيّ، يتغير بتغير الرواة والسياقات. غير أن الرواية لا تستعيد هذا المنطق بوصفه تراثًا بريئًا، بل بوصفه بنية إشكالية تكشف هشاشة الحقيقة في المجتمعات التي تتناقل الحكي بوصفه بديلاً عن المعرفة، أو وسيلة للسيطرة الرمزية. فالحكاية، هنا، ليست وسيلة للفهم، بل أداة للتلاعب، ولإعادة إنتاج الوهم.

وفي ظل هذا التعدد الحكائي، يُجبر القارئ على التخلي عن موقع المتلقي السلبي، ليصبح فاعلًا تأويليًا داخل النص. فغياب المرجع الثابت يدفعه إلى بناء معنى مؤقت، قابل للنقض، ومفتوح على الشك. وهكذا، تتحول القراءة نفسها إلى تجربة عجائبية، لا تقل التباسًا عن الحكاية، حيث يصبح القارئ شريكًا في إنتاج الغموض، لا كاشفًا له.

ومن ثمّ، يمكن القول إن العجائبي الحكائي في الرواية لا يقوم على إدهاش القارئ بقدر ما يقوم على إرباكه، وعلى خلخلة يقينه، وعلى تفكيك العلاقة التقليدية بين السرد والحقيقة. فالحكاية لا تُنقذ، ولا تفسّر، ولا تضيء، بل تكشف حدودها، وتفضح هشاشتها، وتتحول إلى موضوع مساءلة داخل النص نفسه. وبهذا، يرتقي التجريب السردي إلى مستوى سؤال فلسفي حول إمكان المعرفة، وحدود الحكي، ووظيفة السرد في عالم فقد ثقته في الحقيقة.

وهكذا يتضح أن تعدد الأصوات في «الأبله والمنسية وياسمين» ليس تقنية فنية فحسب، بل استراتيجية عجائبية شاملة، تجعل من السرد فضاءً للارتياب، ومن الحقيقة كيانًا متشظيًا، ومن القارئ ذاتًا معلّقة بين الروايات، دون ملاذ أخير أو يقين نهائي.

2-3. العجائبي المكاني والحدثي وتحول القرية إلى فضاء أسطوري

يتخذ العجائبي في رواية «الأبله والمنسية وياسمين» بعده الأكثر كثافة ووضوحًا، إذ لا يعود

1. سعيد، ساسيوي، تجليات الخطاب في الرواية المغربية، منشورات مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، المغرب، 2016، ص 372.

محصورًا في تشظي الهوية أو في ارتباك الحكي وتعدد الأصوات، بل ينتقل إلى مستوى أعمق يتمثل في تفجير المكان نفسه وتحويله إلى بنية أسطورية فاعلة. فقرية «المنسية» لا تُقدَّم بوصفها إطارًا جغرافيًا محايدًا للأحداث، بل تتحول تدريجيًا إلى كائن سردي حي، يتأثر بحضور الأبله ويعيد إنتاج ذاته وفق منطق عجائبي يتجاوز القوانين الطبيعية والاجتماعية معًا.

منذ لحظة دخول الأبله إلى القرية، يبدأ المكان في فقدان صفته الواقعية التقليدية. فالقرية، التي تحيل دلاليًا إلى النسيان والهامش والركود، تتحول إلى فضاء مفتوح على الخرق والانفلات. وهنا يشتغل العجائبي بوصفه قوة زعزعة للمكان المستقر، إذ يصبح الحضور الغريب للأبله محفزًا لانهيار التوازن القائم بين الإنسان والمحيط. ولا يعود المكان مجرد وعاء للأفعال، بل يغدو شريكًا فيها، ومتواطئًا مع التحول، بل ومسرّعًا له.

يتجلى هذا التحول بوضوح في مشهد بناء البيت في يوم واحد، وهو حدث لا يمكن قراءته خارج منطقه العجائبي. فطلب الأبله بناء بيت بثلاث غرف ومطبخ وحديقة قبل غروب الشمس، وإشراك الرجال والنساء والأطفال والحيوانات في عملية البناء، كما ورد في قوله: «نريد بيتا من ثلاث غرف ومطبخ وحديقة، ونريد أن يتم بناؤه قبل غروب شمس هذا اليوم...».[1]

لا يمثل مجرد واقعة غرائبية، بل يؤسس لقطيعة جذرية مع منطق الزمن والعمل والإنتاج. فالزمن هنا لا يُقاس بالساعات والجهد، بل يُختزل ويُطوى، ليصبح قابلًا للاختصار والاختزال، وهو ما يتحقق فعلًا حين يُبنى البيت كاملًا قبل صلاة العصر، ويُرتَّب المتاع في أقل من ربع ساعة، ويغدو البيت أشبه بـ«جناح قصر من قصور الملوك».[2]

هذا الخرق الزمني والمعماري لا يمكن فهمه بوصفه مبالغة سردية فقط، بل بوصفه إعلانًا عن ولادة فضاء أسطوري داخل القرية. فالبيت الجديد، بموقعه المختلف عن بيوت القرية وشكله المغاير لها، يتحول إلى علامة مادية على حضور قوة خارقة، ويغدو رمزًا لاختلال النظام القائم. إنه ليس مجرد مسكن، بل نقطة تمفصل عجائبية يتغير عندها إيقاع المكان، وتبدأ القرية في الانزلاق نحو منطق غير مألوف.

غير أن العجائبي المكاني لا يتوقف عند حدود البناء، بل يتسع ليشمل السلوك الجمعي والنسق القيمي، كما يتجلى في مشهد الاحتفال الجماعي الذي يعقب هذا الحدث. فالمشهد الذي تتحول فيه القرية إلى عرس غير مسبوق، وتنهار فيه كل الضوابط الأخلاقية والاجتماعية، ويمكن أن نستشف ذلك من خلال المقطع التالي: «طار وقار الشيوخ، تبخرت حشمة النساء، وتبرأ الأطفال

1. الميلودي شغموم، الأبله والمنسية وياسمين، مصدر سابق، ص 12.
2. الميلودي شغموم، الأبله والمنسية وياسمين، مصدر سابق، ص 12.

من الحياء...»[1]، وبالكاد يجسد هذا المثال ذروة التحول العجائبي، حيث لا يعود الخارق متعلقًا بالفعل المادي وحده، بل يمتد إلى البنية الرمزية والأخلاقية للمجتمع.

في هذا المشهد، يصبح المكان فضاءً لانكشاف المكبوت الجماعي، ولانفجار ما كان مؤجلًا أو مقموعًا. فالليل هنا ليس مجرد زمن طبيعي، بل زمن طقوسي، تُعلَّق فيه القوانين، وتُرفع الحدود، وتختلط العلاقات والأنساب، في صورة تذكّر بطقوس الانقلاب الكرنفالي، حيث يسقط النظام الاجتماعي مؤقتًا، وتظهر الحقيقة العارية للمجتمع. وبهذا المعنى، فإن العجائبي لا يكشف عن «استثناء»، بل عن هشاشة النظام القيمي نفسه، وسرعة انهياره حين يتعرض لهزة رمزية قوية.

إن شمولية هذا التحول، التي تطال الشيوخ والنساء والأطفال، تجعل العجائبي هنا ظاهرة جماعية لا فردية، وهو ما يضفي على قرية «المنسية» طابعًا أسطوريًا كاملًا. فهي لم تعد مجرد قرية، بل فضاءً تجريبيًا تُختبر فيه حدود الأخلاق، وقابلية المجتمع للانفلات، وسرعة انتقاله من الطاعة إلى الفوضى. ومن ثم، يغدو المكان مرآة مكبرة للتوتر القائم بين الظاهر والمضمر، بين القيم المعلنة والرغبات الكامنة.

ومن خلال هذا البناء، يتضح أن المكان في الرواية يؤدي وظيفة دلالية مركزية، إذ يتحول إلى وسيط سردي يكشف عن طبيعة الإنسان والمجتمع. فالعجائبي المكاني لا يهدف إلى خلق الدهشة فقط، بل إلى مساءلة فكرة الاستقرار نفسها، وإلى إظهار أن النظام الاجتماعي، مهما بدا صلبًا، يظل قائمًا على توازن هش، يمكن أن ينهار بفعل حضور «الآخر» المختلف، أو بفعل حدث غير متوقع.

وهكذا، تُبنى قرية «المنسية» بوصفها فضاءً أسطوريًا تتداخل فيه الأزمنة، وتنهار فيه الحدود بين الطبيعي والخارق، وبين النظام والفوضى. ويغدو العجائبي، في هذا المستوى، أداة فنية وفكرية في آن واحد، تُستخدم لتعرية البنى الاجتماعية، وكشف قابلية المكان -بما هو حاضن للقيم- للتحول والانقلاب. وبهذا يكتمل المشروع العجائبي في الرواية، حيث تتضافر الشخصية والحكي والمكان لإنتاج عالم سردي يهز يقين القارئ، ويدفعه إلى إعادة التفكير في مفاهيم الواقع، والنظام، والحقيقة ذاتها.

إن رواية «الأبله والمنسية وياسمين» تصنف ضمن «الروايات الإيجابية التي تتجاوز في رؤيتها ما هو موجود في الواقع، من أجل البحث عن قيم أصيلة غير موجودة في الواقع، وهذا سر القيمة الإنسانية والفنية لأي عمل إبداعي، على اعتبار أنه ليس عملا ثانويا في حياة الإنسان، وإنما يساهم

1. الميلودي شغموم، الأبله والمنسية وياسمين، مصدر سابق، ص 12.

في تأسيس المستقبل الإنساني»[1]. لقد اعتمد الروائي الميلودي شغموم في هذه الرواية على آليات الترميز والتلغيز من خلال الاستناد إلى الحكاية، بهدف بلورة رؤية فكرية حول واقع المجتمعات العربية. كما ارتكز على شخصيات ذات دلالات رمزية، يلفها البعد الأسطوري والعجائبي، لتسهم في تقديم الرؤية الفنية التي سعى إلى إبرازها داخل النص.

3- الهوية الثقافية والصراع النفسي والاجتماعي

3-1. الصراع النفسي الداخلي وأثره على تكوين الهوية المغربية

تعتبر رواية «الصبح القريب» لأنس سعيد محمد نموذجًا سرديًا غنيًا يعكس تعقيدات النفسية المغربية في مواجهة التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي فرضتها العولمة على الفرد والشباب. فالرواية لا تكتفي بسرد الأحداث أو تقديم الشخصيات، بل تسعى إلى إظهار الصراعات الداخلية العميقة التي تشكل الهوية المغربية المعاصرة، عبر شخصية محسن الطراف التي تمثل نموذجًا للكائن النفسي الاجتماعي المتفاعل مع المحيط، ومتصادمًا مع الضغوط الثقافية والدينية الحديثة، ومواجهًا لتحديات الانفتاح على العالم الخارجي.

الصراع النفسي الداخلي لدى محسن ينطلق من التوتر بين الرغبات الذاتية والانضباط الأخلاقي والديني، وهو صراع يظهر جليًا في المقطع التالي: «المسكينة... تحسب أني أجهز لها مفاجأة سارة وليس ورائي إلا غانية أقطف من ثمارها الشهية المحرمة! وافترسه تأنيب الضمير وهو يقرأ في عيني أمه الأمل العذب والظن الحسن، نعم لم يكن يخلو من لحظات يعذبه فيها ضميره عقب كل لقاء بعزيزة...».[2]

يمكن قراءة هذا المقطع كمثال حي للتوتر النفسي الذي يعيشه الفرد المغربي بين الانغماس في الملذات الفردية والالتزام بالقيم الدينية والاجتماعية. فالشخصية مجبرة على مواجهة مشاعرها، وتقييم أفعالها وفق منظومة من القيم الأخلاقية والدينية، الأمر الذي يعكس وعي الفرد بمسؤولياته تجاه الأسرة والمجتمع. ومن هنا، يتضح أن الهوية المغربية، كما تصورها الرواية، ليست مجرد تقليد أو اتباع نمطي للثقافة، بل عملية مستمرة من التقييم الذاتي والموازنة بين الواجب والرغبة، بين الحرية الفردية والانتماء الاجتماعي.

ويأتي البعد الديني كعنصر أساسي في ضبط النفس وإعادة التوازن الداخلي، حيث يعكس

1. حميد، لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنيوية تكوينية)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، 1985، ص 107.

2. أنس سعيد محمد، الصبح القريب، دار مدارك للنشر، الرياض، 2023، ص 276-277.

حضور الدين في مشاهد مثل صلاة محسن وقراءته لسورة الكهف كيف يمكن للبعد الروحي أن يشكل إطارًا توجيهيًا للفرد، ويمنحه القدرة على مواجهة الإغراءات والانحرافات. وفي هذا السياق، لا يمثل الدين مجرد طقس شكلي، بل أداة عملية للتحكم في الذات، وإعادة ترتيب الأولويات، وإرساء قاعدة للهوية المغربية التي تجمع بين الانتماء الديني، والممارسة الاجتماعية، والانضباط الذاتي. كما يظهر الدين كعنصر تنظيمي، يوفر للفرد ثباتًا نفسيًا نسبيًا في مواجهة التحولات الاجتماعية والثقافية، ويتيح للشاب المغربي مقاومة الضغوط الخارجية والانغماس في قيم أجنبية أو دخيلة.

يمتد الصراع النفسي أيضًا إلى العلاقات الأسرية والاجتماعية المباشرة، حيث يعيش محسن ضغوطًا متواصلة بين الالتزامات تجاه الأم والأخت وبين رغباته الشخصية. هذا التوتر يكشف الطبيعة الديناميكية للهوية المغربية، التي تتشكل في التفاعل اليومي مع الأسرة والمجتمع، وليس فقط من خلال التمسك بالقيم التقليدية أو الأعراف الثقافية. فالهوية تصبح إذن نتاج تفاعل مستمر بين الفرد والبيئة المحيطة، حيث يسعى الشاب إلى الموازنة بين الانتماء للمجتمع والحرية الفردية، بين التقليد والانفتاح على الحداثة، وبين الالتزام الديني والانغماس في الرغبات الشخصية.

الصراع النفسي الداخلي في الرواية لا يقتصر على مجرد مواجهة الرغبات والانضباط الأخلاقي، بل يتعمق ليصبح ميدانًا للتفكير الفلسفي والوجودي، حيث تتجلى أسئلة عن الحرية والمسؤولية، والحق والخطأ، والانتماء والانعزال، والذات والمجتمع. فمحسن، من خلال تأنيب الضمير والمراجعة الذاتية المستمرة، يصبح شخصية تحليلية، توازن بين الوعي الفردي والضغط الاجتماعي، وبين الموروث الديني والقيم الحديثة. ومن هذا المنطلق، تصبح الهوية المغربية عملية مركبة متعددة المستويات، تشمل البعد النفسي الفردي، والتأثير الاجتماعي المباشر، والتفاعل الديناميكي مع التحولات الثقافية والاجتماعية الحديثة، ما يجعلها فضاءً حيًا، متغيرًا، ومفتوحًا على التأويل.

الرواية أيضًا تؤكد أن الهوية المغربية ليست مجرد منظومة رمزية جامدة، بل إدراك مستمر للعلاقات الاجتماعية والثقافية والروحية، وممارسة يومية للتوازن النفسي والمجتمعي. ومن خلال تجربة محسن، يتضح أن الشباب المغربي يعيش صراعًا دائمًا بين الانتماء لموروثه الثقافي والديني، وبين التعرض لتجارب عالمية جديدة تتطلب المرونة والقدرة على التكيف، وهو ما يعكس التوتر بين التقليد والحداثة، بين الانتماء والحرية الفردية، وبين المسؤولية والرغبة الشخصية.

علاوة على ذلك، تربط الرواية الصراع النفسي الداخلي بالتحولات الاجتماعية الكبرى، حيث يظهر أن التجربة الفردية ليست منعزلة، بل انعكاسًا للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الأوسع، مثل العولمة، والانفتاح على الثقافات الأجنبية، والاختلافات الطبقية. وهكذا، يصبح الصراع النفسي الداخلي مؤشرًا على التحولات المجتمعية الكبرى، ويتيح قراءة الرواية ليس فقط

كعمل أدبي، بل كوثيقة اجتماعية ونفسية تسلط الضوء على التحديات التي تواجه الشباب المغربي المعاصر.

وفي الختام، تؤكد الرواية أن الصراع النفسي الداخلي هو المحرك الأساسي لبلورة الهوية المغربية، وأن فهم هذا الصراع يتطلب إدراك التفاعل المعقد بين الدين، الأسرة، المجتمع، والرغبات الذاتية. فالهوية المغربية هنا عملية مستمرة من التوازن بين الضبط الذاتي والمرونة السلوكية، بين الالتزام الاجتماعي والانفتاح على الحداثة، وبين الأصالة والانفتاح على التغيير. ومن خلال شخصية محسن الطراف، تقدم الرواية رؤية معمقة ومعقدة لتحديات الشباب المغربي المعاصر، بعيدًا عن الصور النمطية، وتفتح نافذة واسعة لفهم كيفية تشكل الهوية في عالم متغير مليء بالصراعات الداخلية والخارجية.

3-2. الصراع الاجتماعي والقيم الدخيلة وانعكاسها على الهوية المغربية

يستكمل هذا المبحث تحليل الرواية من زاوية الصراع الاجتماعي والتحولات القيمية التي يفرضها العصر الحديث على الفرد المغربي، مستندًا إلى تصور الرواية عن المجتمع الذي يعج بالاختلافات الطبقية، والتقلبات الاقتصادية، والاندماج التدريجي للتيارات الثقافية الغربية والعولمة. فرواية «الصبح القريب» لأنس سعيد محمد تضع القارئ أمام مشهد مغرب معاصر متشابك، حيث تتصارع القيم التقليدية المستقرة منذ قرون مع قيم دخيلة جديدة، وتشكل هذه التفاعلات الميدانية الواقعية سياقًا بالغ التعقيد لتكوين الهوية الوطنية والشخصية على حد سواء.

3-2-1. الانزياح بين القيم التقليدية والقيم الدخيلة

تبدأ الرواية باستكشاف تجربة محسن الطراف، الشاب المغربي التقليدي المتشبّع بالوازع الديني والأخلاقي، لكنه في الوقت نفسه منخرط في مجتمع حديث متأثر بثقافات جديدة وقيم استهلاكية فردية، مثلما يظهر في مقطع استرجاعه لتجربته في إسبانيا: «حين استأنف محسن الطراف عمله بعد انقضاء إجازته كان قد استُجد نشاطه، وانتفع أعظم النفع بما أخلد إليه من الراحة بعد طول تعب، وبما تمتع به من التجوال في إسبانيا التي طالما كانت حلم حياته...».[1]

هذا المقطع يعكس تجربة الفرد المغربي في مواجهة التحولات الاجتماعية الكبرى: إذ يُجبر على الاختيار بين الطموح الشخصي والانخراط في مجتمع يفرض نمطًا من الحياة جديدًا، وبين الالتزام بالقيم الدينية والاجتماعية الأصيلة. ويبرز هنا البعد النفسي والاجتماعي للهوية المغربية: فالهوية

1. أنس سعيد محمد، الصبح القريب، مصدر سابق، ص 591.

ليست مجرد شعور بالانتماء أو مجموعة رموز ثقافية جامدة، بل هي عملية ديناميكية مستمرة، تتشكل من خلال الممارسة اليومية، والانضباط الذاتي، والموازنة بين القوى الداخلية والخارجية المؤثرة على الفرد.

3-2-2. أثر الصراع القيمي على التماسك الأسري

الرواية لا تكتفي برصد التناقض بين الفرد والمجتمع، بل تتوسع إلى تفكيك البنية الأسرية بوصفها فضاءً مركزيًا لتشكل الصراع القيمي. فعلاقة محسن بأمه وأخته وفاطمة، وصديقيه عبد الغفور الهيشو ويوسف الطوبهر، تمثل شبكة علاقات مركبة تشكّل الإطار الاجتماعي الذي ينمو داخله الفرد.

فعلى سبيل المثال، يقابل محسن شخصية عثمان، الأخ المهاجر، الذي يمثل نمطًا معاصرًا للانغماس في قيم دخيلة، مثل الأثرة والجشع الفردي، وابتعاده عن الالتزام الأسري والديني. وهنا تتضح مفارقة جوهرية: فالهوية المغربية التقليدية، المتجسدة في الالتزام بالقيم الدينية والاجتماعية، تواجه تهديدًا من الداخل نفسه، من أبناء المجتمع المتأثرين بالتيارات الحديثة والعولمة. هذه المواجهة الداخلية - بين الأخوة، بين الأسرة، بين الفرد والمجتمع - تُظهر أن الهوية ليست ثابتة، بل هي مجال مستمر للصراع والتفاوض.

3-2-3. التوتر بين الانفتاح على الحداثة والحفاظ على الثوابت

من أبرز سمات الرواية معالجة التوتر النفسي والاجتماعي الناتج عن التعرض لقيم الحداثة والعولمة، مقابل الحفاظ على التراث والقيم الدينية والاجتماعية. فمحسن، وهو مثال للشاب المغربي التقليدي، يعيش في بيئة مغربية متغيرة، حيث تتصادم خبراته السابقة مع نمط حياة جديد، سواء عبر السفر أو التعرض لثقافات مختلفة. الرواية تصور هذا الصراع عبر المونولوج الداخلي والتأملات الشخصية التي تمكّن القارئ من فهم مدى هشاشة التوازن بين الانفتاح على العالم الحديث والحفاظ على الهوية الأصيلة: «...انبعث في قلبه المكدود دفق من الرضى والتسليم بالمقادير، وجعل يتأمل حياته الماضية حامدًا الله على ما كان وما لم يكن...».[1]

يوضح هذا المقطع الدور المركزي للوازع الديني والأخلاقي في دعم الهوية المغربية: فالالتزام بالقيم لا يُفهم بوصفه مجرد واجب اجتماعي، بل كآلية نفسية للحفاظ على التوازن الداخلي في مواجهة اختبارات الواقع.

---

1. أنس سعيد محمد، الصبح القريب، مصدر سابق، ص 591.

3-2-4. الهوية المغربية كمسار ديناميكي متعدد الأبعاد

تؤكد الرواية أن الهوية المغربية ليست مجرد مجموعة من الرموز أو القيم الجامدة، بل منظومة متكاملة تتشكل من خلال التفاعل بين الفرد ومحيطه الاجتماعي والثقافي. فالهوية هنا متعددة المستويات:

- البعد النفسي: يعكس الصراع الداخلي للفرد بين الرغبات والشهوات، والانضباط بالقيم الدينية والاجتماعية.
- البعد الاجتماعي: يظهر من خلال العلاقات الأسرية والمجتمعية المباشرة، مثل التوازن بين الالتزام بالقيم وفرض الاختيارات الفردية.
- البعد الثقافي: يعكس مواجهة الفرد للتيارات الثقافية الحديثة والتغيرات الاجتماعية والعولمة، ومدى تأثيرها في إعادة صياغة القيم والتقاليد.

الرواية بذلك تقدم تحليلًا مركبًا ومتعدد الطبقات للهوية، حيث تظهر الهوية المغربية كمسار ديناميكي مستمر، يمكن أن يحافظ على ثباته في مواجهة الضغوط، لكنه أيضًا معرض للتحولات والتمزقات بفعل التغير الاجتماعي والتأثيرات الخارجية.

3-2-5. الهوية المغربية بين الثبات والتحول

تقدم الرواية تصوّرًا متوازنًا بين الثبات والتحول في الهوية المغربية. فمحسن الطراف يمثل الثبات، فهو متشبّع بالقيم الدينية والاجتماعية، ويستمد قوته من التراث والتاريخ الأسري والثقافي. أما عثمان، والأمثلة الأخرى للقيم الدخيلة، فيمثلون التحول والتهديد الذي تفرضه الحداثة والعولمة. بهذا المعنى، تصبح الرواية دراسة اجتماعية ونفسية متكاملة حول كيفية تكيف الهوية المغربية مع التغيرات المعاصرة، وكيفية مقاومتها للقيم الغريبة، مع إبراز هشاشتها أمام الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

يمكن التأكيد على أن الرواية تقدم رؤية شاملة ومعمقة لصراع القيم الاجتماعية وتأثيرها على الهوية المغربية، إذ يظهر الصراع الاجتماعي بوصفه امتدادًا للصراع النفسي الداخلي، لكن على مستوى جماعي ومؤسسي. فالهوية المغربية في سياق الرواية ليست مجرد قضية فردية، بل نتاج تفاعل ديناميكي بين الفرد، الأسرة، المجتمع، والقيم الثقافية والدينية، وهي عملية مستمرة تتسم بالمرونة والحساسية للتغيرات الداخلية والخارجية. بذلك، تتحقق الرواية بوصفها دراسة أكاديمية متقدمة لتحديات تكوين الهوية الوطنية والثقافية في ظل العولمة والتغير الاجتماعي،

كما أنها تقدم نموذجًا لفهم الهوية بوصفها عملية متعددة المستويات، تتفاعل فيها النفسية مع الاجتماعية والثقافية، والتقاليد مع الحداثة، والفرد مع المجتمع.

3-3. تكوين الهوية المغربية وإعادة التوازن الداخلي والخارجي للشخصية

تقدّم رواية «الصبح القريب» لأنس سعيد محمد نموذجًا سرديًا متكاملًا لفهم كيفية تشكّل الهوية المغربية في ظل الصراعات النفسية والاجتماعية المعاصرة، وتوضح كيف يمكن للفرد أن يوازن بين متطلبات العصر والتمسك بالقيم الأصيلة، سواء كانت دينية أو ثقافية أو اجتماعية. الشخصية الرئيسة، محسن الطراف، لا تُصوَّر كشخصية سردية جامدة أو أحادية البُعد، بل تتجسد كشخصية مركبة نفسياً واجتماعياً، متشابكة في صراعاتها الداخلية والخارجية، متفاعلة مع محيطها الاجتماعي، وواعية بجذورها الثقافية والدينية، ومتأثرة بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي يشهدها المغرب الحديث، لا سيما في سياق العولمة والانفتاح على قيم خارجية جديدة.

يتجلّى الصراع الداخلي لمحسن في التوتر المستمر بين الرغبات الفردية والانضباط الأخلاقي والديني، وهو صراع يبرز الطبيعة الديناميكية للهوية المغربية، التي لا تُفهم باعتبارها مجرد التزام شكلي بالقيم أو الأعراف الاجتماعية، بل بوصفها عملية مستمرة للتفاعل بين الذات والمجتمع. يظهر هذا بوضوح في المقطع الذي يصف ضمير محسن المتأزم بعد كل لقاء مع عزيزة: «المسكينة... تحسب أني أجهز لها مفاجأة سارة وليس ورائي إلا غانية أقطف من ثمارها الشهية المحرمة! وافترسه تأنيب الضمير... فتوضأ ولبس قندورته البيضاء، وبكر إلى مسجد (الحاج سعيد) ليتسنى له قراءة سورة الكهف كاملة»[1]. يكشف هذا المشهد عن الثنائية الجوهرية في تكوين الهوية المغربية، والتي تتجسد في التوتر بين الرغبة والانضباط، الشهوة والواجب، الذات والمجتمع. إذ يعمل الضمير الديني والأخلاقي كآلية ضبط نفسي تمنح الفرد القدرة على مواجهة الانحرافات والانغماس في الملذات، كما يعكس وعيًا ذاتيًا متقدّمًا بمسؤولياته تجاه الأسرة والمجتمع. ويتوافق هذا المشهد مع ما تشير إليه الدراسات النفسية والاجتماعية بشأن بناء الهوية في البيئات المتحولة، حيث تتداخل العوامل الداخلية والخارجية لتشكيل وعي الفرد الذاتي والاجتماعي.

تتعزز هذه العملية من خلال التعلم من التجارب الحياتية وإعادة ترتيب الأولويات، إذ يُظهر النص كيف أن الفرد المغربي في سياق الرواية يستفيد من الخبرات اليومية، السفر، مواجهة الصعوبات، والتفاعل مع محيطه، ليعيد بناء فهمه لذاته وموقعه في المجتمع. ويمكن أن نعاين ذلك من خلال المقطع السردي الآتي: «حين استأنف محسن الطراف عمله بعد انقضاء إجازته كان قد

1. أنس سعيد محمد، الصبح القريب، مصدر سابق، ص 276-277.

استُجد نشاطه، وانتفع أعظم النفع بما أخلد إليه من الراحة بعد طول تعب... وترسخ يقينه بأن لله حكمة فوق أفهام البشر، وأن أحدًا لن يسعه أن يعيش حياة شخص آخر أبدا...»[1]، ويثبت هذا المقطع دور التجربة الواقعية في تشكيل الهوية المغربية، إذ يتيح للفرد التكيف مع التغيرات المعاصرة دون فقدان جوهره الثقافي والديني، ويظهر كيف يمكن للوعي بالقدر والقيم الروحية أن يعيد ترتيب الأولويات ويخلق التوازن النفسي الداخلي.

تلعب العلاقات الاجتماعية دورًا محوريًا في عملية التشكّل، إذ أن الهوية المغربية لا تتبلور في عزلة عن السياق الاجتماعي، بل هي نتاج التفاعل الدائم مع الأسرة، الأصدقاء، والزملاء، وكذلك مع الضغوط المجتمعية المتنوعة. يظهر هذا من خلال شبكة علاقات محسن العائلية والاجتماعية، حيث تتقاطع توقعات الأم والأخت مع التأثيرات الخارجية، ويتطلب من الشخصية موازنة دقيقة بين الالتزامات المجتمعية والرغبات الشخصية. ويبرز هنا أن الهوية المغربية ليست مجرد قيم فردية، بل منظومة متكاملة تتشكل عبر ممارسة يومية للتوازن النفسي والاجتماعي، كما يشير إلى ذلك الباحثون في علم الاجتماع الثقافي عند دراسة تأثير البيئة الاجتماعية على التوجهات الفردية

تسعى الرواية أيضًا إلى توضيح قدرة الهوية المغربية على التكيف مع التحولات المعاصرة دون التفريط في جذورها الثقافية والدينية. ففي الوقت الذي ينخرط فيه محسن أحيانًا في الملذات الحديثة والانغماس في تجارب فردية، يعيده الضمير والوازع الديني إلى التوازن النفسي والأخلاقي، مما يعكس مرونة الفرد المغربي في الموازنة بين متطلبات العصر والتمسك بالقيم الأساسية. هذه المرونة تؤكد أن الهوية ليست ثابتة، بل عملية ديناميكية مستمرة من التكيف وإعادة التوازن، تتأثر بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتظل متجذرة في الانتماء الأسري والمجتمعي.

تظهر الرواية الهوية المغربية كنتاج لصراع مزدوج: داخلي وخارجي. داخليًا، يتمثل في الصراع النفسي المستمر بين الرغبات والانضباط الذاتي والميل إلى الحرية، وخارجيًا، في التفاعل مع الأسرة، المجتمع، القيم الاجتماعية، والضغوط الاقتصادية والثقافية. هذا التوازن بين الداخل والخارج يسمح ببناء شخصية متكاملة، قادرة على مواجهة تحديات العصر والحفاظ على استقرارها النفسي والاجتماعي، بما يتوافق مع الدراسات المعاصرة في علم النفس الاجتماعي التي ترى أن الهوية الوطنية والفردية تتشكل من خلال التفاعل المستمر بين العوامل الداخلية والخارجية.

تولي الرواية أهمية خاصة لبُعد الانتماء في سياق العولمة، حيث يتجلى الصراع بين نزوع الشخصيات إلى الهجرة بوصفها وسيلة لتحقيق الطموح الفردي، وبين التشبث بالبقاء حفاظًا على القيم التقليدية والارتباط بالأرض والوطن. ويعكس هذا التوتر تجربة الشباب المغربي المعاصر في

1. أنس سعيد محمد، الصبح القريب، مصدر سابق، ص591.

مواجهة التحولات العالمية، وما يرافقها من إعادة تفاوض مستمرة بين الهوية المحلية ومتطلبات الانفتاح على منظومات قيمية كونية. ويؤكد هذا البعد أن الهوية المغربية تظل عملية دينامية، شديدة الحساسية للتأثيرات الخارجية، لكنها في الآن ذاته قادرة على إنتاج أشكال من التوازن تحفظ الجذور الثقافية والاجتماعية.

في المجمل، تقدم رواية «الصبح القريب» نموذجًا متكاملًا لفهم الهوية المغربية كعملية معقدة ومتعددة المستويات، تشمل البعد النفسي للفرد، والتفاعلات الاجتماعية، والالتزام بالقيم الثقافية والدينية، والتكيف مع التحولات المعاصرة. فهي توضح أن الهوية ليست وراثة جامدة، ولا مجرد شعارات رمزية، بل نتاج صراع مستمر بين الرغبات الشخصية والواجبات الأخلاقية والاجتماعية، بين الانفتاح على الحداثة والحفاظ على الأصالة، وبين الداخل والخارج، بحيث يصبح الفرد قادرًا على إعادة ترتيب أولوياته، وضبط نفسه، ومقاومة الضغوط الخارجية، وتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي الضروري لبناء شخصية متكاملة ومستقرة في مواجهة تحديات العصر.

خاتمة:

تبيّن من خلال هذا البحث أن الرواية العربية المعاصرة لم تعد تُقارب بوصفها خطابًا حكائيًا يكتفي بتمثيل الواقع أو إعادة إنتاجه، بل غدت فضاءً سرديًا معقّدًا تتقاطع داخله رهانات جمالية وبنيوية مع انشغالات دلالية وثقافية متعددة. وقد أتاح تحليل آليات التجريب السردي الكشف عن تحوّل عميق في بنية الحكي، حيث جرى تفكيك منطق المرجع، وزعزعة انتظام الزمن والمكان، وتفتيت الهوية السردية، بما أفضى إلى إنتاج نصوص منفتحة على التعدد والاختلاف، وقابلة لقراءات نقدية متباينة.

وقد أبرزت الدراسة أن اعتماد المفارقة واللعب السردي والميتاسرد لا يشكّل مجرد انزياح شكلي أو ترف تقني، بل يمثل وعيًا سرديًا متقدمًا بطبيعة الحكاية وحدودها، وبعلاقة النص بذاته وبقارئه. كما أظهر توظيف العجائبي، سواء على مستوى بناء الشخصيات أو تشكيل الفضاء أو تنظيم الحدث، قدرة السرد على تجاوز منطق الواقعية التقريرية، وبناء عوالم رمزية تسمح بتكثيف الدلالة وتعقيد التجربة الحكائية، دون الانفصال الكامل عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي تتحرك داخله الشخصيات.

وفي مستوى دلالي موازٍ، بيّن البحث أن تمثلات الهوية الثقافية تحضر في الرواية العربية المعاصرة بوصفها موضوعًا سرديًا قائماً بذاته، يتجسد أساسًا في الصراع النفسي الداخلي للشخصيات، وفي علاقتها المتوترة بالمحيط الاجتماعي والقيمي. ولا تُقدَّم الهوية هنا في صورة ثابتة

أو مكتملة، بل بوصفها بناءً متحركًا ومفتوحًا، يتشكل عبر التوتر والتفاوض والاختلاف، ما يعكس تعقيد التجربة الثقافية في سياقات موسومة بالتحول والاحتكاك بين المرجعيات.

وتؤكد نتائج الدراسة أن الجمع بين الاشتغال التجريبي والانشغال بالهوية لا يقوم على علاقة توليد سببي أو تبعية منهجية، بل على تَجاوُر داخل النسيج النصي، يتيح للرواية أن تشتغل على مستويات متعددة في آن واحد. فالبنية السردية التجريبية لا تُنتج الهوية الثقافية، كما أن موضوع الهوية لا يفرض بالضرورة شكلًا سرديًا بعينه، وإنما يلتقي المستويان داخل النص بوصفهما جزءًا من مشروع روائي يسعى إلى استيعاب تعقيد التجربة الإنسانية.

وانطلاقًا من ذلك، يمكن القول إن الرواية العربية المعاصرة تطرح نفسها بوصفها مختبرًا سرديًا مفتوحًا، تُختبر فيه أشكال الحكي وطرائق تمثيل الذات والعالم، دون خضوع لمنطق أحادي أو تفسير اختزالي.

في ضوء ما سبق، يفتح هذا البحث آفاقًا لدراسات مستقبلية يمكن أن تركز على استكشاف العلاقة بين التجريب السردي وأساليب التلقي، أو مقارنة تمثلات الهوية الثقافية في الرواية العربية بما يقابلها في آداب أخرى، أو دراسة تحولات البُعد العجائبي ضمن سياقات سردية متنوعة. كما يسلط البحث الضوء على أهمية الحذر المنهجي عند تناول الرواية المعاصرة، لضمان قراءة متعددة المستويات تحترم تعقيد النص، وتجنب الانزلاق إلى تصنيفات جامدة أو استنتاجات سببية غير مبررة.

وبذلك، تؤكد الدراسة أن الرواية العربية المعاصرة، بانفتاحها على التجريب السردي واهتمامها بأسئلة الهوية، تشكّل فضاءً خصبًا لإعادة التفكير في السرد بوصفه ممارسة جمالية ومعرفية وثقافية، قادرة على مساءلة الذات والواقع.

لائحة المصادر والمراجع:

- الحجمري، عبد الفتاح. الحكاية والحياكة: توصيفات نصية وحكائية في الرواية المغربية التسعينية، ضمن كتاب جماعي: الرواية العربية في نهاية القرن: رؤى ومسارات، أعمال ندوة علمية (25-26-27 سبتمبر 2003)، منشورات وزارة الثقافة، المغرب.
- ساسيوي، سعيد. تجليات الخطاب في الرواية المغربية، منشورات مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، المغرب، 2016.
- شغموم، الميلودي. عين الفرس، منشورات دار الأمان، الرباط، ط2، 2008.
- شغموم، الميلودي. الأبله والمنسية وياسمين، منشورات الزمن، المغرب، 2015.
- لحَمداني، حميد. الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنيوية تكوينية)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، 1985.
- محمد، أنس سعيد. الصبح القريب، دار مدارك للنشر، الرياض، 2023.

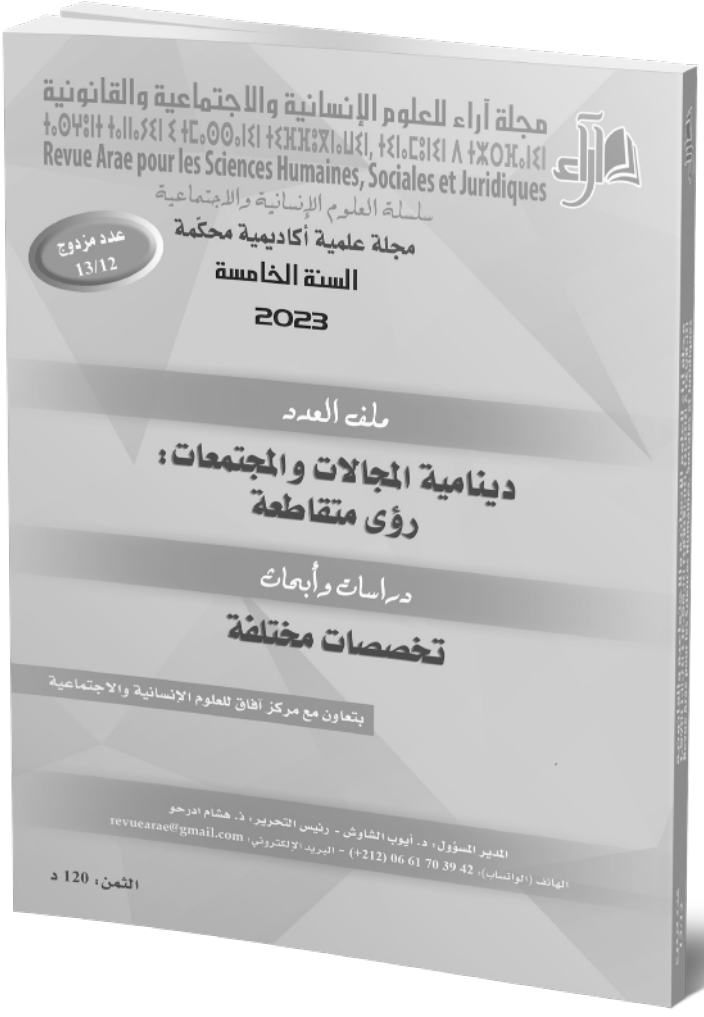
مجلة آراء للعلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية
Revue Arae pour les Sciences Humaines, Sociales et Juridiques
سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة علمية أكاديمية محكّمة
السنة الخامسة
2023
عدد مزدوج
13/12
ملف العدد
دينامية المجالات والمجتمعات:
رؤى متقاطعة
دراسات وأبحاث
تخصصات مختلفة
بتعاون مع مركز آفاق للعلوم الإنسانية والاجتماعية
المدير المسؤول: د. أيوب الشاوش - رئيس التحرير: ذ. هشام ادرحو
الهاتف (الواتساب): 42 39 70 61 06 (212+) - البريد الإلكتروني: revuearae@gmail.com
الثمن: 120 د